من القاتل

لأندريه وارنود

بقلم الدكتور محمد الرافعى

أصبح الناس فى قرية بوڤلييه الصغيرة وعليهم الضباب ومعه الريح الباردة تسفع الوجوه ، وبين الضباب والريح يطير الخبر المزعج : أن قتل مسيو ڤينيه برصاصة وقعت فى عنقه !

وعثروا على جثته فى أرباض القرية ، بين أسوار الحدائق على مقربة من النهر . وكانت العاصفة والمطر وظلام الليل ستر على القتل والقاتل ، فلم ير أحد ولم يسمع

ومسيو ڤينيه هذا عملاق مصبوب الخلق ، مفتول العضل ، غليظ الألواح ، طويل عريض قد ناهز الأربعين ، يعيش فى سعة من غلة أرضه ويلهو أكثر وقته بالصيد ، وفى سائر الوقت يختلف إلى الأندية والحانات

ويعرفه أهل قريته فاجراً صاحب نساء وغزل ، فحديثه وحديثهن على كل شفة ؛ ولم يلفه الليل إلا على امرأة يخادنها أو يحتظيها ؛ وهن إليه أشد ميلاً ، فله المال وفيه القوة ، وإلى ذلك ظرف وجمال وصبابة ورقة حديث

فمن الذى قتل مسو ڤينيه ؟

لعلها واحدة من صواحبه غارت عليه أو نقمت منه أو نكثت عهدها ؛ أو لا فعشيق واحدة منهن أراد أن يزيحه من طريقه ..

عرفت كل هـذه التفاصيل من الخادم وأنا أتناول فطورى ، إذ كنت فى فندق المحطة وقد بتُّ فيه متخلفاً أنتظر القطار المحلى الذى يبرح فى الصباح قرية بوڤلييه

ودخل أحد الشرطة إلى الفندق فجعل يتحرى أسماء المسافرين الذين وصلوا بالأمس ؛ ثم تقدم إلى فى شأنى وشأن أوراق ؛ ثم سألنى كيف قضيت الوقت منذ طرأت على هذه الناحية ؟ وبعد أن تثبت من قولى حيانى ومضى لسبيله .

فقلت للخادم :

— ما أحسبه يشق عليه أن يضع يده على القاتل والبلدة من صغرها تكاد تسلمه لمن يبحث عنه . .

قال : لا يكون هذا رأيك يا سيدى ، فالقرية يمر بها غرباء كثيرون . وهب القاتل من أهلها فلا ريب أنه قد تدبر واحتاط وفكر وقدر ، وما يكون مثل هذا المجرم الذى يقتل هذا العملاق

إلا عارماً شديد البأس يرهبه الناس فلن يظهر اسمه على لسان أحد . وأيُّ الناس يريد لنفسه القتل؟

وخرجت أسير في الجموع المضطربة أذهب هنا وهناك إلى أن يحين الوقت ، ثم توجهت إلى المحطة وجعلت أتصفح الوجوه أبحث عن شخص جمعني به القطار أمس وقضينا معاً شطراً من الليل ، وكان هو أيضاً قد طرأ على البلدة وتخلف ينتظر القطار المحلي ، فتواعدنا أن نلتقي في المحطة

* * *

وكان صاحبي هـذا رجلاً قد علاه الشيب فابيض شعره الخشن ، وسطع بياضه على وجه قد لوحته الشمس فاسمر واحمر . وكان قصير القامة صلب العضل ، قويا مجتمعاً ، عصبي المزاج يطير من عينيه مثل الشرر إذا حدّق إليك ..

ولم يكن حديثنا في القطار إلا تحية وردّها ؛ وقد تخلف مثلي في بوتيابيه ، فما إن وطئت قدماه أرض الرصيف حتى أسرع إلى عربة الأمتعة ومعه الحمالون ينزلون متاعه وأثقاله وهو شيء كثير عجيب مختلف ، يجمع أنواعاً عدة من فسائل شجر الورد إلى صناديق ضخمة تضم ألواحا من الرمر المصقول أجيد نحتها في باريس

ودنوت من الرجل ، وكان القطار يهم أن يتحرك ولما يفرغ الحمالون من عملهم ، فألقيت حقيبتي وعملت معهم في إنزال ما بقي ، فشكرني ودعاني للعشاء معه

وتلاقينا في مطعم اشتهر بإجادة أطعمته فما يفوت الغريب أن يختلف إليه . وجلسنا لطعامنا وبدأ يحدثني حديثه ، فكانت قصة من أعجب القصص ..

* * *

تزوج شمزالك هذا وهو في الأربعين من عمره بفتاة تقارب العشرين . وكان مهندساً في شركة كبيرة فأوفدته إلى بلدة بكسيول القريبة من هنا في عمل من أعمالها يستغرق سنين عدداً . فلما جاء إلى هذه البلدة أخذ بجمال طبيعتها وسحر مناظرها فابتاع منزلاً ريفياً سكن فيه مع زوجته الجميلة ، تحوطهما سعادة الحب ؛ أو لعله كان يتوهم ذلك ..

وتصرمت الشهور وتبعتها السنون وهو ناعم بحياته الجديدة ، مسحور بالجمالين في الطبيعة وفي زوجته « مشلين » . وكان واثقاً من حبها مطمئناً الى وفائها ، حتى ألقي اليه ذات يوم كتاب غفل من التوقيع ينبهه فيه كاتبه الى أن يفتح عينيه على زوجته ... فسخر من الكاتب وكتابه ، وانطلق الى داره وما يشك أنه سيطالع امرأته بحديث يضحكها ويضحكه

وخطر له وهو يفتح باب الحديقة أن يحكم الدعابة فيجعلها رواية ذات فصلين ؛ فإذا انفجر من الغيظ في الفصل الأول وهو يعتقد الريبة ، انفجر من الضحك في الفصل الثاني وهو يطمئن الى الحب ... فلبس وجه الغيظ والحنق ودخل على زوجته دخول الموتور في عرضه وكرامته وقال لها :

أما الآن فقد برح الخفاء وانكشف المستور وتحقق الظن ونطقت الريبة ... تباً لك من خائنة غادرة تبتذل عرضها وتخون زوجها . هلمي فاسألي الله أن يرحمك إن كان يرحم الفاجرة ؛ فإني قاتلك لا محالة

* * *

وتابع الرجل حديثه لي فقال :

لم أكن — علم الله — أريد غير المزح والدعابة وما كان يخطر لي قط أن يحدث ما حدث ... فما سمعت المرأة ما سمعت ورأت ما رأت ، حتى انقلبت عيناها وزاغ بصرها وانكفأ لونها وتهارب دمها ، وارتعدت واضطربت ومادت ووقعت باكية على قدمي ... :

فوقفت مشدوهاً لا أكاد أصدق ما رأيت لولا أني أرى ... ؛ ثم أعماني الحب وأشفقت عليها وظننت ما بها مما يحدثه الرعب ، وقلت : لعلها حسبتني قد جننت ... فضممتها الى صدري وقبلتها وجعلت أهدئ روعها وأعتذر إليها حتى سكن ما بها ولما طابت نفسها انفجرت ضاحكا وقلت لها : هذا هو الفصل الثاني من الرواية الهزلية ... ثم حدثتها بالخبر وأقرأتها الكتاب ، فطوقتني بذراعيها وتعلقت بي وقالت وهي تقبلني :

— ما كان أبعدك من الرحمة ! لقد حسبتك جننت ... ، فلأن أظن بك الجنون أقرب من أن أظن أنك ترتاب في

* * *

ومرت الأيام وكنت أشهد حبها يتضاعف كما تكفر التائبة عن خطيئة تريد أن تمحوها من ذاكرة محبها ... وحملت ذلك الكتاب على محمله من حسن الظن ، فقلت : لعله من ماجن يعبث بي ، أو عدو يكيد لي ، أو عامل طردته فيريد أن ينتقم مني بتخريب سعادتي ... غير أني لم أطمئن الى ذلك وساورتني الظنون الأخرى ، ولم أر من الحكمة أن تعلم زوجتي بما تخالجني من الشك ؛ فجعلت أتجسس عليها وأستقصي أخبار من تتصل بهم ؛ حتى كان يوم تلقيت فيه رسالة أخرى لا توقيع عليها ، وهذا نصها :

« إن زوجتك على موعد من كبير المهندسين ، وأنت تعرف أنه السيد « ڤارنك » ، وستوافيه اليوم في الساعة الثالثة على قمة فيزون بفندق الخنزير البري حيث يلتقي العشاق ... »

فما قرأت هذه الرسالة حتى دارت بي الأرض وغلى دمي وجن جنوني فهممت أن أذهب الى دار المهندس فأبطش به . ولكني تماسكت وجعلت أتدبر :

إن قمة فيزون بعيدة لا يمكن بلوغها إلا بالسيارة ؛ فان كان الخبر صحيحاً فعادة زوجتي كلما أرادت السيارة أن تسألني هل أنا في حاجة إليها ؟

إذن فلأنتظر

وجلست معها للغداء وكأن لم يكن بي شيء ؛ وأشرفنا على الفراغ من الأكل ولم تسألني فهدأت وكدت أطير فرحاً ، وجعلت في نفسي ألمن النميمة وأهلها ، وأنا في ذلك إذ قالت مشاين في تردد :

— أتحتاج الى السيارة اليوم يا عزيزي ؟ فاني أريدها لنزهة قصيرة في الجبل

وكان كلامها كالصاعقة انقضت علي ، فاحتبس لساني ورأيتني أختنق ؛ غير أني تماسكت مرة أخرى لأنتهي الى النهاية . فقلت لها وأنا أنتزع الكلام انتزاعا :

— ألا ترين أن الجو اليوم ليس جو النزهة في الجبل ؟

فعبست وقالت بجفاء :

— ولكني أريد التنزه اليوم

وكنت مستطيعا أن أمنعها إذا زعمت لها أني في حاجة الى السيارة ، أو قلت إنها معطلة ، أو اعتللت بعلة ما ... ولكن قلبي كاد يتمزق بالشك ، وأردت اليقين واليقين في خروجها ، فتركتها لشأنها وقلت خذيها فلست في حاجة اليها

وأسرعتُ الى محل العمل فسألت عن ڤارنك فقيل لي إنه قد خرج في سيارة ولن يعود بعد ظهر اليوم ... فطار لبي وتحققت من مصيبتي ، ولم أملك الصبر حتى ألتمس سيارة تحملني وتقذف بي على الخائن والخائنة ، فعمدت الى « موتوسكل » كان لأحد العمال فطرت به

فلما وافيت الفندق رميته ومضيت حذراً ألوذ بكل ما يواريني . وكنت الى تلك اللحظة أراجع

نفسى وأزعم أن زوجتى قد ذهبت الى جهة أخرى وأنى لن أجد أحدا ، وسأجلس فى الفندق لكأس أو كأسين ثم أعود الى دارى مطمئنا فأجلس عند قدمى زوجتى وأعتذر اليها كما اعتذرت فى المرة الأولى ...

وما بلغت هذه الخاطرة من تفكيرى حتى كنت بحذاء الفندق وكأنه يقول لى أنظر أنظر ...

أبصرت زوجتى ، وقد جلست الى ڤارلك وأمامها الشراب ... فانقضضت عليها كالموت . أما هى فوقعت مغشياً عليها ، وأما هو فانتهض وقد اكفهر وجهه وتلعثم لسانه وأخذ يتمتم ، يحاول أن يتكلم ... فلم أمهله ولم أسمع له ، بل صفعته على وجهه ثم انطلقت أعدو كالمجنون وطرت بالموتوسكل

* * *

كان ذلك قبل الحرب العظمى ، وكانت العادات يومئذ غير العادات ، والشرف غير الشرف ، فما وصلت البلدة حتى التمست زميلين لى فطلبت اليهما أن يكونا شاهدى فى مبارزة ڤارلك . وأجمعت على قتله إذ كان حذقى فى الضرب بالسيف لا يقل عن مهارتى فى الرمى بالرصاص

ثم أقمت فى محل عملى وأبيت أن أرى زوجتى أو ترانى . فكتبت إلىّ تضرع أن آذن لها فتطالعنى بالخبر على جليته فان الأمر غير ما ظننت ، وإنما هو شأن آخر ستثبته بالبرهان القاطع ، و ... وهنا مزقت الرسالة ولم أستوف قراءتها ، وأبيت عليها ما سألت

ووقعت المبارزة وتضاربنا بالسيف ؛ فما كانت إلا هنيهة ثم أغمدت سيفى فى صدر الخائن فسقط ميتا ولم ينطق بكلمة ولا حرف

وعدت ساعتى الى باريس فكتبت الى الشركة ألتمس عملا آخر . وجاءنى الرد أن لا عمل إلا فى ناحية بعيدة من بلاد أفريقيا ... وفى هذه الناحية قد هلك كل من أرسلتهم الشركة اليها ، فهى تظن أن تبعث بى الى الموت

وما علمت الشركة أن الموت هو الذى أريد . فقبلت العمل وسافرت دون أن أرجع الى بكسيول لأرى زوجتى ، إذ لم يكن أبغض إلىّ من أن أراها

ووهبتها المنزل ونزلت لها عن حصة من مرتبى تدفعها الشركة اليها ؛ غير أنى أشترط ألا تعلم ولا يعلم أحد بالمكان الذى سافرت اليه ، وأن يغيّر اسمى فى دفاتر الشركة حتى لا تعلم ولا يعلم أحد . وتركت بلادى كأنى مودع العالم ، فلا همّ لى إلا أن أموت فى أفريقيا فينسانى الجميع ...

* * *

ونشبت الحرب غير أنى لم أغامر فيها لشدة احتياجهم إلىّ ، فلقد كان الزنوج يهاجموننا كل يوم ، ولولا مدافعنا الرشاشة لهلكنا جميعا

وجعل الزمن يمر وكأنه لا يمر على ، إذ لم يكن لى شىء جديد . ولم أعد الى بلادى وآثرت أن أهلك كما يهلك الانسان فى الصحراء . وانقطعت عن العالم وانقطعت أخبار العالم عنى ، فلم أكتب لأحد ولم يكتب الىّ أحد ؛ واستحجر قلبى من هول المصائب ، ورأيتنى كالوحش الذى لا يفهم الموت حين نمت الىّ الشركة ذات يوم زوجتى الخائنة ...

وكان صباح وكان مساء ، وتقلب الظلام والنور ، حتى مررت يوماً بحصن تنزل فيه سرية من الجند يقودها ضابط عاش فى باريس قبل الحرب ؛ فجلسنا نتحدث ونستعيد العالم ، وما كان أشد دهشتى حين علمت منه أنه كان عاملاً فى إدارة الشركة ... !

وترامى بنا الحديث عن رجل ، رجل من الرؤساء ، فقال لى :

— هل عرفت ڤارلك ؟

فحدقت فيه أحسبه يهزأ بي . . . ولكني تذكرت أني قد غيرت اسمي فمن البعيد أن يعرف من أنا ؛ وكأنما أراد أن يذكرني ، فقال :

— ألا تذكر ڤارنك الذي قتله زميل له في المبارزة ؟

قلت — فما قصة هذه المبارزة ؟

قال — لقد ذهب ڤارنك ضحية خطأ شنيع .

— أي خطأ ويحك ؟ ألم يكن خليلاً لزوجة قاتله ؟

— كلا كلا ... لم يكن في قدرته أن يكونه ... ولقد اطلعت على الملف الخاص به عند ما كنت أعمل في إدارة الشركة ؛ فهذا البائس أطهر من الطفل الرضيع إذ خذلته الطبيعة فلا يصلح لامرأة ... لا تلك ولا غيرها ولكني ...

إني أعرف ما تريد أن تقول ... نعم إن الرجل فاجأه مع زوجته على حال ظنها مريبة ؛ غير أنهما لم يكونا في مجلس غرام ، بل اجتمعا لشأن آخر . . . فقد كانت هذه الزوجة تضرعت إلى ڤارنك وألحت عليه أن يسعى في الانعام على زوجها بنوط الشرف ، وسعى ڤارنك وكتب إلى الشركة أيضاً ، وقد رأيت كتابه بعيني رأسي ، وكان طلبه قريباً من الاجابة ، وبشروه بذلك ، وذهبت الزوجة إليه تتلقى البشرى ، ولكن الزوج الأبله تحرّش به ولم يسمع منه ، ثم قتله ولم يسمع من زوجته ، ثم رحل إلى حيث لا يعلم أحد أين رحل ...

* * *

قال محدثي :

هذا ما قصه الضابط ... وكدت والله أموت حسرة وندما ، وكدت أجن من هول ما صنعت ، وتمزق قلبي أشد وأوجع مما قاسيت من قبل ، فلم أطق العيش وحاولت الانتحار فحيل بيني وبينه ، ثم اختلت أعصابي وأصبحت خطراً على أتباعي ، ولست أدري ماذا كان يحدث لو لم ترحمني الطبيعة هناك فتضربني بالحمى التي أرجعتني إلى هنا ... ! ولم تقتلني الحمى فقد كانت لي قوة أقوى منها ، وهي رغبتي في التكفير عن الذنب

وبحثت فعلمت أن ڤارنك ربيباً هو ابن أخته ، وقد ذلّ بعد عز ، وافتقر بعد غنى ، فنزلت له عن أكثر ما جمعت من المال

أما زوجتي المسكينة فلم تترك أحداً تربطه بها آصرة ، فجملة همي أن أعيش ما بقي من العمر في ذكراها ، أتعذب بها كما عذبتها . . . فاستعفيت من العمل وجئت أريد بكسيول التي دُفنت فيها ، ومعي ما رأيت من غراس الورد على أنواعه ، ومن هذه الأحجار الغالية ، وهي من نحت مثّال عظيم في باريس ، وهو آت بنفسه على أثري ليقيم البناء على القبر ، فيجعله أثراً خالداً مذكوراً من آثار الفن ، وإلى جانبها سأقضي بقية مدتي ، وإلى جانبها سأدفن

* * *

وحان المطعم أن يغلق أبوابه ، فخرجنا وكان المطر ينهمر ، وجعلنا نلتمس الطريق حتى بلغنا المحطة وبها مقهى يظل مفتوحاً إلى الصباح ، وأبى صديقي إلا أن يدخل إليه ، فهو على سنه ما زال يظمأ إلى الخمر ؛ ولم يكن احتجز لنفسه غرفة يأوي إليها في الفندق ، وتركته يتمايل سكراً وانطلقت وحدي .

* * *

قلت في أول القصة إني توجهت الى المحطة وجعلت أتصفح الوجوه أبحث عن شخص ، فهو صاحبي شميزلك ، وقد التمسته فلم أجده ، وانتظرته فلم يجئ ، إلى أن تحرك القطار فوثبت إليه

وبلغنا بكسبول وفيها ينزلون ما جاء به صديق عن غراس الورد وأحجار القبر ، وأنزلها القطار ومضى بي

وقضيت عملي ورجعت بعد أيام ، فاضطررت إلى التخلف مرة أخرى في بوقليبه ، فنزلت حيث كنت نازلاً وسألت الخادم :

— هل عثروا على القاتل ؟

فقال : أنهم قبضوا على فتاة ولكنهم لم يقبضوا على دليل يثبت جنايتها . وأن هذه الفتاة أقرت أن القاتل رجل غريب كان معها هو والقتيل ، ووصفته بأوصافه ، فبحث الشرطة في جميع الفنادق واتصلوا بكل من نزلوا بها تلك الليلة فلم يهتدوا إليه ولا إلى من يعرفه . ولعله لم يقض ليلته في الفندق . . . ولكن ما الذي يدعو هذا الغريب لقتل ڤينيه ؟ لا أظنها إلا حيلة تريد الفتاة أن تخدع بها الشرطة . . . وأى ذلك كان فأمامك الجريدة المحلية وقد اقتصت الخبر من أوله إلى آخره

وتناولت الجريدة وقرأت ما شهدت به الفتاة فاذا هي تقول إنها كانت صدرا من الليل مع ڤينيه تعاقره الخمر حتى ثملا . فلما انتصف الليل وأغلقت الحانة ذهبا الى مقهى المحطة ؛ ودخل الى المكان رجل علاه المشيب ، أسمر الوجه مشرب بحمرة ، قوى الجسم ، قصير القامة ؛ وكان يترنح من شدة السكر . فتجاذب هو وڤينيه الحديث وخاضا فيه ، وزعم أنه قادم من باريس ووجهته الى بكسبول

وأخذ ڤينيه كعادته يُشَقِّق الحديث بأخبار النساء من حظاياه وعشيقاته ، وقال ان اسم بكسبول يذكره بأيام الطلب إذ كان في السابعة عشرة من عمره ، وكان يومئذ قد اتخذ أول خليلاته وهي زوجة مهندس تدعى مشاين . . . وازدهى بأنها كانت تهيم به هيام الجنون فتأتى في سيارتها الصغيرة بين الوقت والوقت للخلوة به في فندق من الفنادق ثم تدفع للفندقي ما كان يجب أن يدفعه هو . . . !

وجعل ڤينيه يلعن زوج هذه المرأة فقد كان أبله مغفلا ؛ إتهم رئيسه بزوجته فدعاه للمبارزة وقتله ثم نأى فلا يعلم أحد أين هو . وقد ترك لزوجته منزلاً وحصة كبيرة من مرتبه ، فكان ڤينيه هو الذي يستمتع بالمال والدار والزوجة ، ساخرا هو وعشيقته من المغفل . . . الى أن هلكت المرأة

وهنا سكت ڤينيه عن الكلام وكان السكر قد نال منه ، فغمغم الرجل الشيخ بكلمات لم تفقهها الفتاة ؛ بيد أنها رأت وجهه كوجه النمر من الحنق والغيظ

وبعد ذلك أخذ ڤينيه يغنى ويعربد فأخرجهم صاحب المقهى . وسأل الشيخ صديقه أن يصحبه في نزهة ، وأبت الفتاة وألحت على ڤينيه أن يعود الى مثواه ، فأغضبه الحاحها فلطمها لطمة ألقتها إلى الأرض . وما كادت تنهض حتى أبصرتهما يبتعدان إلى ناحية النهر . . .

* * *

فألقيت الصحيفة من يدي وقد عرفت من القاتل . . . وتحزنت على صديقي التعس صاحب غراس الورد وأحجار المرمر المصقول . . . فلا بد أن يكون قد أزهق نفسه وانتهى القاتل والقتيل . . .

وقبل أن أغادر قرية بوقليبه تحدثت الى محطة بكسبول فعلمت أنه لم يأت إليهم أحد يسأل عن المرمر وغراس الورد ، وقد ذوى الغراس فانقلب حطباً . . .

وأنت يا قبر زوجة شمبزاك . . . ؟ ؟

محمد الرافعى